جون هوَرْد واصلاح السجون

بقلم جناب دبنري افندي قندلفت

لا شيء ادعى الى اطمئنان قلب العاقل وانشراح صدره من نظره الى تعالي الطبيعة والادب نظر المتأمل البصير فيجمع بين شرائعهما بجامعة الاخاء والاتحاد ويربطهما برابطة الوفاق والوئام حتى تتطابق الدائرتان ويتحد المركزان فيدوران على نقطة واحدة هي وحدة الوضع الازليّ مع خير الانسان

ومن اوضح الادلة على وحدة الاصول والمبادىء في العالمين ان ناموس تشابه الاسباب والنتائج وتناسب العلل والمعلولات واحدٌ فيهما بلا تخلُّف ولا انثلام فالنتيجة مجانسةٌ لقوتها ابدًا . وما ناموس ردّ الفعل في الطبيعيات باجلى حقيقةً منهُ في الاديبات . فان قوّة العنف والقسوة لا تنتج الاَّ مثيلها من العناد والاصرار والعسف لا يولد غير الصلف والتمادي في ميدان العصيان . وقس على ذلك ناموس تنازع البقاء او بقاء الانسب وما شاكلهُ مما قد تكون حقيقتهُ في عالم الادب اوطد ركنًا واجلّ شأنًا واوضح برهانًا

وكما كان من شأن الشرائع الطبيعية ان تُكشَف حقائقها تدريجًا على تراخي الايام وبعد طول التجربة والاختبار كذلك كان من نصيب المبادىء الادبية العائدة على صلاح هيئة الاجتماع ان لا تظهر كواكبها اللاَّمعة لاهل السيادة والاحكام الاَّ بعد ان مرَّت شعوب المعمور في اطوار من ظلمة الجهل والوحشية وبعد ان أنَّت الارض من ظلم ساكنيها قرونًا مديدةً حتى لم تعد تُطيق الاحتمال

وغير خافٍ ان اكثر الناس يزعمون لاول نظرة ان غرض الشرع من فرض العقاب والحدّ على المجرم مجرَّد ايقاع الاذى عليهِ من طريق الاقتصاص والانتقام محتجين بأن الإرهاب هو الذي يُلزم المذنب جادَّة العدل وحسن السلوك وان القوّة القاهرة هي التي تقف بهِ عند حدود الاستقامة وتردُّهُ الى سبيل الصواب وان بذلك يُصان نظام عقد الاجتماع وتحفظ الحقوق المتبادلة بين افراد الأُمة والقبيل . وقد غفل ارباب هذا المذهب على كثرة عديدهم عن أنَّ اصلاح الجاني وردَّهُ الى سواء السبيل بالتي هي اقرب الى شِرعة الحكمة والخير العامّ من اجل غايات العقاب المقصودة بالذات . فاذا صحب عقاب المجرم ما يدلُّ على رجاء الخير فيهِ كان ذلك أَحسن لتلافي شرّهِ وأَعون على راحة العباد والبلاد مما يهيج في صدرهِ وحيثما من بقية الشهامة التي تحيا في الرجاء وحسن الثقة وتموت في اليأس ومطلق الخذلان

ومن الغريب ان البشر لم يتنبَّهوا الى ما في رأي القهر والانتقام من النقص والتقصير عن ادراك الغاية القصوى من القصاص الاَّ لعهد قريب من ادوار المدنية والعمران . هذه اوروبا التي طلعت عليها انوار المدنيَّة منذ اربعة قرون فاقمحت قرَّةَ عين التمدُّن وغرَّة جبين الانسانية كانت سجونها لاواخر القرن الثامن عشر من شرّ ما بقي فيها من آثار الهمجية واقبح ما خلَّفت لها عصور البربرية وقرون الظلام

ومع ما بلغت شرائعها واحكامُها لذلك العهد القريب من مراقي العدل والرحمة ومحاسن الانصاف والاشفاق وما تجلَّى لحكَّامها من انوار العلم الكاشفة للحقوق الفردية والاجتماعية كانوا في معاملتهم للمجرمين والمذنبين كأنهم لم يعرفوا للحق دستورًا ولا شاموا الانسانية نورًا . ولو لم يقم من افراد الامة الانكليزية من تنبَّه لويلات اهل السجون حتى وقف الذات والحياة على تيسير الحكام بشقاء احوالهم واستصراخ الشعب استنجادًا لكشف ذلك الضرّ لظلَّت السجون الى ما شاء الله مدافن سكَّانها هم في عالم الظلام والشقاء والناس فوقهم في عالم النور والنعيم لا يعلمون من امرهم شيئًا كأنهم عميٌ صمٌّ لا يبصرون ولا يسمعون .

وان كان العقلاء من عشَّاق التاريخ تروق لهم اساطير السلف من اخبار الحروب الصادعة للقلوب والمُجيبون بابطال الفتوح والغزوات التي راح فيها ما لا يحصى من النفوس البشرية على مذابح الاطماع السافلة فما أمثل بهم ان يطربوا لسيَر ابطال الاصلاح الانساني الذين تفانوا في احياء العدل والحق العامّ واختطفوا بني التعاسة والويل من مخالب الظلم بما قاسوا من ذلّ الجهاد والعناء وما رفعوا منار الانسانية الاَّ بما كابدوا من ضروب الخسف وجهد البلاء

فما اخلق بمثل المقتطف الاغرّ كوكب الشرق السَّاري ان يضمّ في صفحاته الى ما سبق من تراجم عظماء الارض من فلاسفة وعلماء وقوَّاد وفاتحين ومكتشفين ومخترعين ومحسنين سيَر اخوانهم المصلحين كُماة الانسانية الذين احسنوا اليها باجلى ما ابقى ذكرًا واطيب نشرًا واعظم فخرًا وأجرًا

ونحن الآن موردون خلاصةً تاريخية لما كان من سوء حال السجون الاوروبية وتعاسة حظِّ سكانها من بني الانسان مع الاتماع الى بداية اصلاح الحالتين تبصرةً لقوم وتذكرةً لآخرين

اوَّلُ من تنبَّه لحال السجون وشقاء الساجين جون هَوَرْد الانكليزي من نوابغ المحسنين المصلحين في اواخر القرن الثامن عشر ذلك انهُ فيما كان مسافرًا بحرًا من انكلترا الى البورتغال داهمتهُ سفينةٌ للقرصان الفرنساويين فأخذ اسيرًا مع رفاقه فيها ونالهم من ضروب القهر والاهانات والتعذيب النصيب الوافر حتى انهم حرموا الخبز والماء ثمانيًا واربعين ساعةً . ولما اوصلهم نكد الطالع الى احدى المدن سجنوا هناك في احدى سجون القلعة الطافحة بالاقذار زمنًا غير يسير

لم يدخل اجوافهم فيه طعام الى ان ألقي لهم ذات يوم قطعةٌ من اللحم النيء فتكالبوا عليها نهشاً كجياع الذئاب . ولم يكن بقي ابدانهم في تلك الزريبة الوحشية من رطوبة الارض ووبالة الانذار سوى شيء قليل من النفش . ولما نال هوورد صاحب الترجمة رحمة الاطلاق اسرع الى انكلترا ولم يهدأ له بال حتى فاز بنعمة الافراج لرفاقه الاسرى المساكين

فتنبه من ذلك السجن وعقد النفس على اصلاح سجون الارض حتى صار قبلة آماله وكعبة مساعيه واعماله بل غرض حياته الوحيد العزيز . فشرع اولاً يكاتب سجناء الانكليز في قلاع اوروبا وسجونها وقوفاً على احوالهم . فوجد انهم كانوا اسوأ حالاً من حاله في ذلك السجن فلاح له ان يبتدئ باصلاح سجون بلاده الانكليزية فوفّق الى استطلاع احوال سجونها وساكنيها بما كان له من وجاهة المنصب في عضوية بعض المجالس فكان يقف على دعوى المجرمين بعين المفتش الرقيب ويرافقهم بعد صدور الاحكام عليهم الى سجونهم فبدا له من احوال تلك السجون ما ينتت الاكباد ويثير الشجون

فان السجناء في سجون انكلترا وغيرها من ممالك اوربا لذلك العهد كانوا يُزجّون في اقبيتها المظلمة جماعات مزدحمة الصفوف بجانب العنوف لا يفرّق بينهم اختلاف الجرائم والذنوب من الجائع الملهوف خاطف الرغيف الى قاطع الطريق وسفّاك الدماء . وقد تبين له بعد البحث انهُ كان في جملة اولئك الاشقياء من ظهرت براءة ساحته بعد ان سجن زمناً طويلاً وان بعضهم لم تظهر عليه اقل شبهة لقيام الدعوى عليه وان غيرهم لم يبرز لهم خصوم بعد ان سجنوا شهوراً فردّوا الى السجن حتى يوفوا آخر فلس للسجان ولمجلس القضاء عدا من اكلت ابدانهم الامراض المختلفة الناشئة من رطوبة السجون وقذارتها ومن راحوا على المشنقة ضحايا الظلم ومن ماتوا فرائس الجوع

ولما كانت رواتب السجّانين والحراس تستوفى من المتّهمين والابرياء لا من الحكومة قام هوورد والتمس اولاً ان تُقضى من صندوق العدلية فعاد بخيبة الامل ولكنهُ ازداد حميةً وعزماً في مسعاهُ الجليل اريد به اصلاح السجون في جميع ممالك الارض

فانهُ وجد بازدياد البحث في بعض الاماكن ان قلاع السجون على اسوإ ما يتصوّر الخيال من سوء الحال . وكانت توضع النساء والرجال في قبو واحد ولم يكن لبعض الغُرَف منافذ للهواء والضياء حتى كانت الحمى تجرف من جموعهم العشرات بعد العشرات ولم يكن للمدينون البائس ما يسدُّ به الرمق او يبلُّ الريق واما عن المكبلين بالقيود والاغلال فحدّث ولا حرج بعد ان تطلق خيالك السراح

وبعد ان تيسر لهذا الانسان العظيم الوقوف على مساوىء السجون وشعاريها في بعض بلاده

جعل يطوف انحاء انكلترا تفقداً لشؤون السجون لا يثنيه عناء الاسفار ولا اهوال الاخطار وقصداً لتفريج الكروب عن بنيها فتسنّى لهُ الافراج عن كثيرين من الابرياء واخراجهم من مدافن الاحياء. وعند ما تمّ لهُ التخصص عن سجون بلادهِ وشاع امرهُ وذاع قرّر مجلس العموم ان تعين لجنة لتحقيق الواقع فقصد هورد بذاتهِ تلك اللجنة حاملاً رزم التقارير والاحصاءات الناطقة بصدق ابحاثهِ وتحقيقاتهِ ولما سألهُ عضو من اللجنة على نفقة مَن قام بهذا العمل العظيم خَتَتْهُ العبرات

على ان هذه اللجنة ألهبَتْ همتهُ نشاطاً بتكرها والالتفات الى بيانهِ والعناية بمطالبهِ فاصدرت الاوامر اولاً بالغاء نقد الجزاء او جزاء النقد أجائر وتعيين رواتب ضباط السجون من صندوق الدولة مع السرعة باطلاق المتهمين الابرياء ثم الحقت ذلك بتطهير السجون وتبييضها وفتح منافذ للهواء والنور. وقرّرت ان تبنى ملاجئ ومستشفيات للعجزة والمرضى من المساجين

وكان هورد اثناء انفاذ هذه الاوامر طريح الفراش من مشاق ذلك السفر الشاق على انهُ لما تعافى قام يطوف اسكوتلاندا وايرلاندا يتفقد سجونها وشؤونها فوجد في البلادين ما وصفناهُ من احوال سجون انكلترا فنشر نتائج ابحاثهِ فيهما فنالت من النجاح ما نالت منشوراتهُ في اختها انكلترا

وبعد ان تمّ لهُ ما سبق من بلوغ الاماني في اصلاح سجون بلادهِ على قدر ما أذنت بهِ الاحوال وجّه زمام العزيمة الى سائر ممالك اوربا في ذلك المقصد النبيل فقصد اولاً فرنسا ولما دخل باريس وطلب الدخول الى سجن الباستيل المشهور أُغلقت في وجههِ ابوابهُ ولكنهُ وُفّق الى دخول بعض السجون غيره فوجدها على فسادها احسن حالاً من سجون الانكليز غير انهُ لما اتصل بالحكومة انهُ طلب دخول الباستيل اصدرت الامر بالقاء القبض عليهِ وطرحهِ في السجن لكنهُ ركن الى الفرار وكان من جراء ذلك الحكم انهُ نشر تقريراً في حالة سجون فرنسا بعد ان لقي في ذلك العناء الثقيل

ولما نالَ بغيتهُ من فرنسا قصد بلاد البلجيك وهولاندا والمانيا يفتش السجون ويستطلع طلع احوالها حتى تجمّع لديهِ من القوائم والتقارير مجموع ثقيل الحمل. وبعد ان عاد الى انكلترا ليشاهد ما جدّ فيها من الاصلاح توجه الى سويسرا فوجد ان مسألة السجون شاغلة للجالس والدوائر وان الاوامر قد صدرت بتشغيل السجناء معاونة على نفقاتهم وتخفيفاً لحمل الضرائب التي كانوا يغرمون بها ارغاماً مدة الاقامة في السجون

وبعد ان انقضى عليهِ ثلاثة اعوام سافر فيها ثلاثة عشر الف ميل نشر مؤلفاً ضخماً في حالة السجون كانت لهُ هزّة في انحاء البلاد وكان من نتائجهِ ان مجلس العموم استدعاهُ ثانية واستأنف المفاوضة معهُ وعاود النظر والبحث في احوال السجون بغية الزيادة في الاصلاح

والتحسين . فاشار هوورد بان تبنى دارٌ للاصلاح (اصلاخانه) لتشغيل المساجين على مثل ما رأى في استردام ولما آنس من المجلس قبولاً لمشورته خفَّ الى تلك المدينة ثانية اتماماً لوقوفه على طريقة تلك الدار

ولما قضى الوطر من تلك الزيارة القصيرة سافر الى بروسيا والتمسا ملاقياً في طريقه معارضات جمة من جندية المملكتين . وبعد ان انفق مدة يسيرة في فينّا عرَّج على ايطاليا ولما بلغ رومية التمس الدخول الى سجون ديوان التفتيش فاخفق مسعاهُ كما ردَّ في باريس فعاد الى انكلترا وطنه وقطع في طريقه هذا اربعة آلاف وستمائة ميل وكان حيثما حلَّت ركابهُ وألقى خطابهُ يلقى جزيل الترحيب والاكرام ويطرب للاذعان الى مشوراته باصلاح السجون واسعاد سكانها . وكان مع بذل اتعابه في الاسفار والبحث والتقرير والتحرير يبسط كفهُ في اسعاف المحتاجين واغاثة الملهوفين وينهض بهذه المكارم الرائعة هم ذوي الاريحية والسخاء فتفتحت ابصار المبصرين من اهل الاحسان في جميع البلدان وتشوفوا الى حديث سكان السجون وكان مدُّ الاكف يتبع سماع الآذان

على ان هذا البطل الهمام والاسد الضرغام لم تقعد به المنة عند هذا الحد من السعي والجد بل عاد ثالثةً الى زيارة سجون بريطانيا العظمى وقطع هذه المرة زهاء سبعة آلاف ميل فقرَّت عينهُ بما شاهدت من مستحدثات الاصلاح الناجمة عن مساعيه السابقة من تحسين بناء السجون على مقتضيات الصحة

ولما اطمأن خاطرهُ تمام الاطمئنان من امر سجون بلاده وما جاورها من ممالك جنوبي اوربا نهضت به العزيمة الى زيارة شمالي اوربا فقصد بلاد روسيا ودخل بطرسبورج منفرداً سعياً على الاقدام . ولما ابصر به البوليس واوصل خبرهُ الى الامبراطورة كاترينا استدعتهُ الى مقابلتها في بلاطها الباذخ الشان فرد دعوتها متلطفاً بقوله انهُ اتى روسيا لا لمشاهدة صروح الملوك والملكات بل لزيارة السجون وسكانها التعساء . وبعد ان فاز باجازة زيارة السجون مصحوباً بقوة عسكرية شاهد في جملة ما وقع لنظره من احوال اولئك السجناء بني الذل والشقاء ما يبكي الحجر الاصم . وتحرير الحكاية

انهُ أخرج يوماً في حضرته من بعض السجون رجلٌ وامرأة ليجلدا بالسوط الروسي المشهور بثقله وشدَّته فاطعم الرجل من ذلك السوط الحلو المذاق ستاً وعشرين جلدةً شهية الطعم والمرأة خمساً وعشرين اوهت منها الجلد والعظم . ولشدة انفعالهِ من تلك القسوة البربرية رام الوقوف على مصير هذين الشقيين فزار الجلاَّد بعد بضعة ايام وسأله "هل يمكنك ان تضرب

بالسوط ضرباً يزور المضروب به القبر" اجاب "نعم" قال هورد "بعدكم يوم يموت الجلود السعيد الحظ" أجاب الجلاد "في يوم واحد ان لم يكن في يومين" قال هورد "وهل سبق لك مثل هذا الضرب" أجاب "نعم. والرجل الذي جلدتهُ منذ وقتٍ قصير مات من ذلك الضرب" فسأله هورد ايضاً "وكيف يمكنك ذلك" اجاب "اهوي بالسوط على جانبيهِ بضربة او ضربتين فيفترق اللحم عن العظم". ومن آخر سوء الاتهِ تحقق ان الجلاَّد انما يفعل ذلك الفعل الشيطاني بامر الآمرين. وقد كتب من موسكو انهُ قد مات في المستشفيات العسكرية من جرَّاء القسوة والظلم لا اقل من سبعين الف جندي في سنة واحدة

وبعد ان قضى زيارتهُ الى روسيا عاد الى انكلترا رابعةً مارًّا في بولاندا فاستريا وفي سنة ١٧٨٣ سافر لاجل هذا المارب الشريف الى اسبانيا والبورتغال ونشر نتائج مشاهداتهِ في ملحقٍ لذلك المجلد الكبير الآنف الذكر

هذا وبعد ان نقضى على هورد اثنا عشر عاماً في الاسفار البحرية والبرية يتفقد سجون اوربا قطع في مدلها اثنين واربعين الف ميل وانفق من جيبهِ الخاص في اغاثة المكروبين والمعوزين ثلاثين الف ليرة انكليزية لم يكتفِ باصلاح السجون بل سمت همتهُ بعد ذلك الى ان يطوف الاماكن التي تفشت فيها يومئذ الاوباء طلباً لتخفيف بلايا المبوئين وسعياً في ايجاد علاج لتلك العلل التي فنيت فيها حيل رجال العلم والطب منذ عرف معنى للطب

فقصد سنة ١٧٨٥ باريس ولنذكر ما جرى لهُ في زيارتهِ الاولى لها عند ما طلب الدخول الى الباستيل دخل الآن باريس متنكراً غير انهُ ليلة وصولهِ اليها اهتدى البوليس الى منزلهِ فاتفقت لهُ حيلة الخوف ان نهض وسط الليل وفرَّ من المنزل ولما بلغ مرسيليا اتاح لهُ الحظ الدخول الى احد السجون فادرك بغيتهُ من نيل المعلومات التي اراد ومن هناك قصد ازمير حيث كان الوباء على اشد حالهِ ومنها ركب باخرةٍ موبوءة قاصداً قسطنطينية مدة الحجر واختبار احوالهِ. ولما منَّ الله عليهِ بالشفاء عاد الى انكلترا وطفق المحبوب يطوف مزرعها وقراها يسعف المسكين ويرد لهفة الملهوف. وكان ابتعادهُ هذا عن اهل السجون ابتعاد الوالد عن اولادهِ ساكني فؤادهِ

وبعد ان لبث مدةً غير يسيرة على تلك الحال جدَّ بهِ الشوق الى اتمام مقصدهِ من زيارة اماكن الوباء. فقصد سنة ١٧٨٩ بلاد هولاندا والمانيا وروسيا وفي نيتهِ ان يوصل سفراتهِ هذه الى تركيا ومصر وتونس وملحقاتها من ولايات بلاد الغرب الآن. أمالهُ هذه انقطعت بانصرام حبل الاجل في خرسان من بلاد التتر الروسية. فانهُ في زيارتهِ السجون على عادتهِ

علقت بوالدي فرض غريباً وهناك ارسل انفاسهُ الاخيرة واسلم تلك الروح الطاهرة لتنال جزاءها الخلد وعزاءها المقيم وقد اوصى ان يدفن هناك في مقبرة لاحدى الكنائس وقال واروا جسدي البالي تحت اطباق من التراب وانصبوا فوق لحدي ساعةً شمسية فالحق بمن طوى ذكرهم الزمان

غير ان اسم مثل هذا المحسن العظيم والمصلح الكريم لن تقوى على محوهِ الايام وكيف ينسى ذكر من احسن الى الانسانية وكان خليل البائس المظلوم ونصير اهل التعاسة والذل والبلاء وهو الذي لولاهُ لظلَّت السجون تبور سكانها الى يوم يبعثون . اجل انهُ مات بعد ان ادرك بعض مناهُ غير ان مقصدهُ النبيل لم يمت معهُ شأن كل مقاصد الاصلاح والصلاح . بل ما انفكت آثارهُ تنطق عنهُ بافصح لسان تنهض بذوي الهمم وتحيي موات الشهامة والنخوة والكرم في جميع الامم المتمدنة الى اليوم فبمثالهِ يقتدي المحسنون وعلى منوالهِ فليَنسج المصلحون

رواية تنكرد

للوزير الشهير اللورد بكنسفيلد

الفصل الرابع

فخر الدين — متى ابطل الناس عبادة هذه الاوثان

تنكرد — لما اعلن الله دين الحق يسوع المسيح

فخر الدين — ولكن الله اعلن دين الحق قبل المسيح لما كلَّم موسى على جبل سيناء وكلَّم الانبياء وملوك اسرائيل بعدهُ

تنكرد — والمسيح واحدٌ منهم وهو آخر ملك قام من بيت داود وقد شاء الله ان تخضع لهُ امم الارض وهذا هو الفرق بينهُ وبين من تقدَّمهُ من الانبياء . والديانة المسيحية هي الديانة اليهودية بعد ما جُعلت عامة لجميع الامم فظهورها امات الاديان الوثنية

فخر الدين — ومن هم الامم ألست انت منهم

تنكرد — نعم انا منهم من قبائل القوطان الذين مرَّت القرون الكثيرة ولم يسمع احد عنهم شيئاً . ولا اعلم ماذا كان حالنا الآن لو لم تنزع عقولنا بتعاليم الديانة العربية السورية . لكن هذه الديانة بلغتنا حديثاً فعلا بها شأننا وصار منا الملوك والامراء

فخر الدين — ما اعجب التاريخ وما اكبر فوائدهُ لو تعلمتهُ لتمَّت معارفي . ولكن هل أُعَدُّ انا ايضاً من الامم